لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الرابع : تفسير الآيات ١٠٢ – ١٠٧ من سورة آل عمران

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده سبحانه وتعالى وهو أهلٌ للثناء والحمد، ونستغفره من ذنوبنا وهو أهلٌ للتقوى وأهل للمغفرة، ونستعيذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلّي ونسلّم على سيّدنا مُحمّد صلاةً تدلّ على إيماننا وتصديقنا ورضانا بربّنا وبرسوله وبديننا، اللهمّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الرابع من لقاءات رمضان لعام ١٤٣٤هـ، وسيكون إن شاء الله مدارستنا للآيات العظيمة التي سمعناها من آل عمران التي في مطلعها خطاب للذين آمنوا..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢ – ١٠٧]

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وهذا أمْرٌ بالتقوى، أتى بعده ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وهذا أمْرٌ جديد، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ نهي، نهانا عن الافتراق، أمرنا بالتقوى ونهانا على أن لا نموت إلا ونحن مسلمين وسيتبيّن لنا هذا النهي.

أمرنا الله بالاعتصام بحبله ونهانا عن التفرّق أمرنا بذكر نعمته ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ اذكروا هذه النعمة، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وسنرى إلى أي شيء سنهتدي.

إذن مرة أخرى:

- أُمرنا بالتقوى ونُهينا أن نموت إلا ونحن مسلمون
- أُمرنا بالاعتصام بحبل الله، ونهينا عن التفرّق
- وأُمرنا بذكر نعمة الله، وأُعلمنا بأن الله يبين لنا آياته لعلنا نهتدي .

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ وهذا أيضًا على وجه الأمر، ما وظيفتها؟ ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ما وصف هذه الأمة، ما جزاؤها، ما حالها عند الله ؟ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

والنهي ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ متى حصل لهم التفرق والاختلاف؟ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ما حالهم عند ربهم، ما جزاؤهم؟ ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

متى يكون الفلاح ومتى سيكون العذاب؟ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ .

- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ يُسألون: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؟ وقع الإيمان ثم الكفر ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إذن بما كنتم تكفرون إنكم تستحقون.
- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إنهم يتمتّعون برحمة الله، أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا ممن ابيضّت وجوههم ومن تمتعوا برحمة الله في الدنيا ويوم أن نلقاه.

من هنا سيبدأ إن شاء الله فهمنا للآيات، نفهم الأوامر والنواهي ونطبق هذا على واقعنا، ونسأل الله أن يعيننا ويشرح صدورنا لمعرفة الحق، ولنعلم أن الدين ليس بالعاطفة إنما الدين أوامر يجب عليك امتثالها، وتدين الله بها، وستسأل عنها لما تلق الله، سنسأل: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

يقول الشيخ رحمه الله في تفسير الآيات:

"هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه" التي يستحقّها سبحانه وتعالى، وحقّ تقواه أمر عظيم، يستلزم من العبد طول الجهاد، يستلزم من العبد التنبّه، اتقوا الله كما يحقّ أن يكون متقوه {**حَقَّ تُقَاتِهِ**}، وهو سبحانه وتعالى يستحق منا عظيم الجهاد، يستحقّ منّا البذل لطلب رضاه ، وحقّ تقاته كما قال ابن مسعود: "هو أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر". وسيأتينا في كلام الشيخ..

"وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه" إذن ما تعليل النهي عن أن لا نموت إلا ونحن مسلمون؟ معناه استمر اثبت ابذل جاهد، واعلم أن من عاش على شيء مات عليه .

فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه -يعني متمكن- **مداومًا لتقوى ربه وطاعته، منيبًا إليه على الدوام، ثبّته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة .**

إذن ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ سيعتمد على أن تتقي الله حقّ تقاته في صحتك، في نشاطك، في الوقت الذي أنت تستطيع أن تقوم فيه بالطاعة، وأنت دائمًا منيب إليه، دائمًا عائد إليه، دائمًا منكسر بين يديه، دائمًا متذلّل له، دائمًا تسأله وترجوه الثبات، فمن كان هذا حاله يتقي ويبذل جهده، يتوب إذا أخطأ، يعود إذا غفل، والله له هو الركن الشديد، وهو القريب المجيب، وهو الولي الحميد، وهو الصمد، من كان الله له بهذه الحال في حياته، **رزقه الله الثبات عند الموت ورزقه حسن الخاتمة.** فاللهم ثبتنا على طاعتك وأحسن خواتيمنا .

وأما تقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يكفر، وهذا كله بحسب طاقته وقدرته، وما لنا إلا الرجاء والدعاء والسؤال أن يعصمنا من الزلل، ومن الغفلة والكفر –كفر النعمة– الذي هو أعظم اختبار يختبر الله عزّ وجلّ به الخلق، فإن للخلق حال في السراء من الغفلة لا تكون في الضراء. فاللهم ثبتنا على دينك في السراء والضراء.

"وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ " أما حق الله عظيم لكن من رأفته بخلقه أوجب عليهم ما يستطيعون.

"وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًّا، يجمعها فعل ما أمر الله به ، وترك كل ما نهى الله عنه" إذن تفاصيل التقوى كثيرة، ما الجامع لها؟

الجامع: فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

"ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى" وهذا أمر في غاية الأهمية ما سيذكر الآن في الآيات من القيم المنسيّة التي فقدنا الكلام عنها! ومن ثم فقدنا ممارستها، وفقدنا التناصح بها، وفقدنا الإحساس بأهميتها! وأصبح الذي يدعو لها يكاد يكون شاذًّا! خصوصًا عندما لا يفهم الخلق المقصود من هذا الأمر.

يقول الشيخ رحمه الله: **ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى** ما الذي يعين على التقوى؟ **وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين،** ويزيد الأمر بيانًا في تبيين المصالح، **فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم:**

- **يصلح دينهم**
- **وتصلح دنياهم**
- **وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور**
- **ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى.**

إذن : اجتماعهم على دينهم وائتلاف قلوبهم سبب لصلاح دينهم وصلاح دنياهم، بالاجتماع يتمكنون من كل الأمور التي فيها خير ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى.

كما أن بالافتراق والتعادي :

- **يختل نظامهم**
- **وتنقطع روابطهم**
- **ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه.**

وهذا أمر خطير جدا لا يشعر به إلا من ذاقه وعاشه ورأى الناس يتحولون بعد علم عن مصالح الشرع، عن الدعوة إلى الدين، عن التعاون على البر والتقوى، **إلى الدعوة إلى النفس وشهوتها!**

بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه ولو أدى إلى الضرر العام ما يفكر في العام، يفكر في نفسه، يفكر في رأيه، يفكر في منزلته عند الخلق، يفكر فيما يجعل شأنه عند الخلق عال، يفكر في الرئاسة والمناصب وفي العلو على الخلق ولو كان في أحقر الأشياء.

ولذلك أمرنا الله بهذا الأمر المهم الذي نرى عدم الفقه فيه متبيِّن، ونرى أيضًا الدعوة الضد! يعني ما نرى الناس فقهوا معنى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ وليس هذا فقط بل أتوا بفهوم على نصوص كأنها تدعوهم الى التفرق! والآية غاية في الصراحة هذا حبل ممدود لكم من السماء شأنكم أن تتمسكوا به، اعتصموا بحبل الله جميعًا، اعتصموا بدين الله جميعًا، ولا تفرّقوا، ينهانا عن التفرّق.

يقول الشيخ: **"ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها"** ذكرهم بالنعمة وأمرهم بالذكر، ما النعمة؟ النعمة عظيمة ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء﴾ يقتل بعضكم بعضًا، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضًا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شرّ عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فلمّا بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض.

إذن الإيمان هو القضية، والتآلف عطية، وسنرى كيف التآلف عطية، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً **فَأَلَّفَ** بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ إنه فعل الله، لا أحد يستطيعه، لكن الخلق اغتروا فنسوا الواجب عليهم من الأفعال وهو امتثال الأمر، ومن ثم من المؤكد أنهم نسوا عطية الله لهم، نسوا أن عليهم أن يمتثلوا الأمر وأن الله هو الذي يؤلف بين القلوب.

فحتى الوصول إلى الألفة ليس طريقه متروك لنا، إنما في الحقيقة كما نقرأ في الآية الفعل فعل الله (فَأَلَّفَ) هذا فعل الله.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وانظر إلى هذا الفعل الآخر من أفعاله ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ .

يقول: **أي: قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.**

﴿كَذَلِكَ﴾ وأنظر أيضًا إلى هذا الفعل من أفعال الله ﴿يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يُبيّن: فعل الله **"أي: يوضّحها ويفسّرها، ويبيّن لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال،** لأجل أي شيء؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرا له ومحبة،** ونحن نعترف بنعمة الله علمنا وأرشدنا ويسّر الأسباب

وسهّل الطرق لمعرفته وتركنا نبينا على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، كل هذه النعم وكثير لا نستطيع عدها، نتذاكر سويًا فضله لنزداد شكرًا له ومحبة وهو المستحقّ للشكر، وليزيدنا هو من فضله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وإن من أعظم ما يُذكر من نعمه

- نعمة الهداية إلى الإسلام هذا أولاً.
- واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هذا ثانيًا .
- واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها هذا ثالثًا .

فاجتماع كلمة المسلمين نعمة عظيمة، فأين الساعين لها؟ أين الساعين لاجتماع كلمة المسلمين؟!

والساعين لاجتماع كلمة المسلمين يبدؤون بما يستطيعون، وأما ما يستطيعونه فهو بيوتهم وحلقات الذكر التي يرتادونها، وجماعة المسلمين الذين يحيطون بهم، وإنا والله نرى عجبًا أن الهوى قد حكم كثيرًا من الخلق استقاموا أو لم يستقيموا، فلا ترى حرصًا على الاجتماع، ولا ترى تنازلًا عن الأهواء، ولا ترى وعظًا من أجل أن يحصل هذا الاجتماع، بل فرقة بعد فرقة، وأفعال مخالفة للشرع تجعل الناس أحزابًا وأحزابًا، وفهوم خاطئة لنصوص صحيحة، والحقيقة أنه شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه!

وما أن تكلمهم عن الاجتماع إلا يكلموك عن البدع، وليس معنى الأمر بالاجتماع أبدًا ولا هذا يُقصد أن تجتمع مع أهل البدع المكفرة أو المفسقة، ولا هذا معناه أن نقبل من كل أحد قوله، أبدًا ليس هذا هو المقصود، وسيأتينا في السياق ما يعلمنا ما هو المقصود وكيف نصل إلى مقصودنا، لكن العجب أن تُترك نصوص الكتاب لآراء الخلق، العجب أن يكون كلام النبي صلى الله عليه وسلم غاية في الوضوح، وأن يكون كلام الله غاية في الوضوح، وسنُسأل نحن ماذا أجبتم المرسلين، وليس ما أجبتم أهواءكم وآراءكم وانشقاقاتكم .

إن مجرد غياب قيمة الاجتماع في قلوب الناس هذا كاف أن يكون نوع من أنواع هجر الدين؛ لأن الله أمرنا في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالاجتماع بطرق متعددة.

بل أنه لما ذمّ المنافقين ذمّهم بتباغضهم وتفرّق قلوبهم ولو اجتمعت أجسامهم فقال في حقهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ فكيف نلقى الله وقد نهانا ولم نمتثل لهذا النهي ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ كيف يكون حالنا بعد هذه الأوامر كلها؟ والنواهي كلها التي تعظم مسألة الاجتماع؟

لقد امتنّ الله على رسوله كما في سورة آل عمران، السورة المقصودة بعد هذه الآيات بقليل، امتنّ على رسوله بلينه للمخاطبين والمخالطين له، وهذا كله ليتحقق الاجتماع، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فانظر كيف أصبح الناس يمارسون الفظاظة على أن هذا نوع من أنواع إنكار المنكر، ويتركون النصوص الصحيحة ويتأولون ما يشتهون، النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ**))[١].

ومن المعلوم أن ((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**))[٢]، ومن أعظم النصيحة الحرص على اجتماع المسلمين ((**بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**))[٣] وتطاوعوا ولا تختلفوا، ((**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**))[٤] تفهم من هذا كيف ورد النهي عن الخروج عن ولاة الأمر، كيف ورد الأمر بالسمع والطاعة وإن ظلموا وعصوا، إذا ظلموا وعصوا هم، أما إذا أمروك أنت بمعصية فلا سمع ولا طاعة ولا خروج ((**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةً جَاهِلِيَّةً**))[٥] وفي الحديث في مسلم: ((**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**))[٦].

كل هذا يدلّ على قيمة الاجتماع، يدل على أهميته، منّة من الله أن ألّف بين القلوب لما آمنت، والطريق لهذا واضح في الآية التي بعدها:

---

[١] رواه مسلم في صحيحه.

[٢] رواه مسلم في صحيحه.

[٣] رواه مسلم في صحيحه.

[٤] رواه مسلم في صحيحه.

[٥] متفق عليه.

[٦] رواه مسلم في صحيحه.

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ هل معنى ذلك أن نترك الناس يقولون ما يقولون؟ نحن نقول: اعتصموا بحبل الله، أنت وهم اعتصم بحبل لله، إنهم يرفضون أن يعتصموا.

يقال لك: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ماذا تفعل؟ ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إذن هذه الأمة دورها الدعوة، الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف وليس الافتراق، نريد أن يأتي الجميع فيعتصموا بهذا الحبل، كيف يعتصمون دون أن نرسل لهم داعيًا يدعوهم إلى الاعتصام؟

الله يقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ وهذا بعد الكلام عن الأمر بالاعتصام بحبل الله.

يقول الشيخ : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ **أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله (أمة) يعني: جماعة .**

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ **وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه .**

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ **وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه .**

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ **وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه.**

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات

الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾.

والمعنى غاية في الوضوح، المطلوب منكم أن تعتصموا ولا تفترقوا، ومن أجل أن يحصل هذا الاعتصام لابد أن يكون هناك علم وفقه، من أجل أن يحصل الاعتصام بحبل الله، إننا لا نريد أن يعتصم الناس على أحزابهم، ولا على أسمائهم، ولا على قبائلهم، ولا على دنياهم، لا نريد الأحزاب، إنما نريد حبل الله فنكون جميعًا حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، ومن أجل تحقيق هذا الأمر لا بد أن يكون حبل الله بيّن واضح لأصحابه، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ تفعل هذا وتدل الغافلين ممن ضلّ ومن ابتعد إلى الصراط المستقيم.

يقول الشيخ: **كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه.**

إذن معنى ذلك : أن الاعتصام بحبل الله سيكون بعد الحرص على تعليم الناس، والذي سَيَرُدّ الناس لدين الله هو تعليمهم.

يقول: **وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.**

فهذا شيء لا يُغفل أبدًا، لو علّمنا الناس التوحيد في الهند وفي المغرب وفي شمال الأرض وجنوبها، ثم اجتمع القوم يحجون فهل يفترقون؟ لا والله ما يفترقون، لأنهم جميعًا تعلموا التوحيد،

وتعلّموا تعظيم الله وتوقير الرسول، وعرفوا أن المطلوب هو متابعة سنة نبيهم لأفعالهم وتوحيد ربهم في اعتقادهم، فتراهم يأتون متلهفين: **ماذا يريد الله؟ بماذا أمرنا؟ ماذا قال لنا الرسول؟ إلى أي شيء دعانا؟** .

إن هذا الخير العظيم الذي نجده من وراء التعليم يجمع أهل الأرض جميعًا على حبل الله، والله هو الذي يؤلف بين قلوبهم، إنهم يجتمعون ولا يفترقون والله يؤلف بين القلوب ويبارك في النفوس، فأنت اتبع الأمر ولا تتعداه، ولا تفكر كيف تتألف القلوب، إنما افعل ما أمرت، تنجو وتصل إلى ما وعدك الله.

والأمر جدّ خطير وليس بالهيّن وليس بالثانوي في حياة المسلمين، بل إننا نرى أن المسلمين بدلوا دينهم ورضوا بالفرقة في خاصة شأنهم وفي عامتهم، فإنك لا ترى ناصحًا إنما ترى شامتًا! وإذا نصح أحدٌ أحدًا فإما يسمع لنصحه ويطيع وإما يقاطعه، فالتفكير فيه من الخلل والهوى وتلبيس الباطل بالحق وتلبيس الحق بالباطل ما يجعل الناس لا يستطيعون أن يفكروا كما ينبغي، وتجد العوام يحذرون الغيبة والخواص الذين يسمون أنفسهم خواص –سواء كانوا من طلبة العلم أو المستقيمين– منطلقة ألسنتهم بغيبة إخوانهم! فالله المستعان وعليه التكلان.

يقول الشيخ: **ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال:** ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ –وانظر إلى هذا الكلام– **ومن العجائب أن اختلافهم** ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ . وهذا هو العجيب: أن اختلافهم أتى بعد ما جاءتهم البينات، البينات توجب ماذا؟

يقول الشيخ: **الموجبة لعدم التفرّق والاختلاف**؛ لأن النصوص غاية في الوضوح، وما عليك إلا أن تنكبّ عليها وتدرسها وتزداد علمًا حتى تجد نفسك قد تبيّن لك الأمر.

يقول: **فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين** ، وصَدَق، هم الأولى من غيرهم بالاعتصام بالدين **والسبب**: أنهم يعلمون، **فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال الله تعالى:** ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نعم أولئك لهم عذاب عظيم بما كانوا يفعلون ، والآخرين قال الله عز وجل في حقهم الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

﴿الْمُنْكَرِ﴾، قال الله في حقهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ نعم إنهم المفلحون، والسبب: انشغال أوقاتهم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، وليس انشغال أوقاتهم بحظوظ أنفسهم وقيل وقال، ولذلك مثل هؤلاء جمعوا على أنفسهم أمورًا عظامًا ، البعد عن طريق الله، وتصوير النفس بأنها تريد الخير، ثم في نهاية الأمر وجود الأحزاب هذا الخطر العظيم، والعالم الإسلامي ذاق مرّ هذا الخطر، ووقع فيه ما وقع، والسبب كله دائر حول هذه القضية: **عدم الاعتصام بحبل الله (الافتراق)**.

وأكيد أن المقصود هنا ليس ترك الناس يقولون ما يقولون ونجتمع معهم، بل مخاطبة الناس وأمرهم بالمعروف وتعليمهم وتعظيم أمر الله في قلوبهم، وبذل الجهد في بيان الحق حتى إذا وصلوا إلى معرفة الحق شرح الله صدورهم –من كان صادقًا في ذلك–، وصرف أهل الباطل عن هذا الحق العظيم، هذا الحق الذي هو أبلج بيّن واضح، اعرضه.

يأتي الآن أكثر أمر يخيفنا : أن مَن لم يمتثل بهذه الأوامر فيعتصم بحبل الله ولا يتفرق، والذي لا يمتثل وهو ممن عليه أن يمتثل هذا الأمر فيدعو الناس ويرغبهم في الخير ويرشدهم إليه، وينتهي عن الافتراق خصوصًا بعدما جاءهم العلم ، لأن هؤلاء المفترقين ماذا حصل لهم؟ عرفوا الحق فخرجوا إلى البدع، ابتدع كل قوم طريقة، وتحزبوا، فما ترى إلا الناس قد وزعوا ولاءاتهم وانتماءاتهم فلم يجتمعوا على حبل الله، وهذه الحزبية المقيتة كثير ممن يهرب منها –لأنه لا يمتثل أمر الله– يدخل فيها، وهذا هو المخيف، فيأتي شخص لا يريد أن لا يكون متحزبا مع المتحزبين، فيتحزب هو ضد المتحزبين وهو لا يشعر فيفعل ما فعلوا وأسوأ!

اللهم إنا نبرأ إليك من الأحزاب، ونسألك أن تجعلنا ممن اعتصم بحبلك، فنحن ليس لنا قائد إلى طريقك إلا نبيك صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الصحب والآل وكل من سار على آثارهم، فنحن بهم مقتدون، ونعلم أنهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفّوا، فحرصنا الشديد على متابعتهم ومتابعة من تابعهم، ولا نوالي ولا نبرأ إلا على الطريق المستقيم، فإننا نعلم يقينًا أن من هرب من شيء ولم يعرف تفاصيل هذا الشيء يقع فيه وهو لا يشعر، فإذا هربنا من التحزب لا بد أن نعرف كيف نعتصم بحبل الله، وكيف ندعو الناس ليعتصموا بحبل الله، وكيف لا أخاطب الناس إذا لم تكن معي فأنت ضدي، وكيف يكون في قلبي رحمة لهم وشفقة ومناصحة، وكيف أفرق بين أهل البدع المكفرة والمفسقة الذين

اعتلوا بالبدعة وسألوها رأسًا لهم، وبين من لم يهتدِ الطريق ولم يقصد المخالفة ولم يعاند ويشاق الله ورسوله.

ولقد رأينا بالأمس الفرق الشاسع بين الذي يحاج إبراهيم في ربه، وبين من مر على القرية فوقع في قلبه شك كيف يحيي الله الموتى، كيف عامل الله الأول المعاند، وكيف عامل الثاني الذي وقع في قلبه شك والظاهر أنه يريد الحق، فلما يعامل ربنا الخلق هذه المعاملة لا بد أن نكون أهلًا لأن نسير على ما أمرنا الله به.

إن الأحزاب والانقلابات والمظاهرات ما أخرجت إلا بلاء وراء بلاء، إن السير على منهج الله ومنهج نبيه صلى الله عليه وسلم يوصل الخلق إلى الحق.

ناصحوا الخلق، علموهم، ارشدوهم إلى ربهم، سيعتصمون وقتها كلهم بالطريق، سيعتصمون كلهم بحبل الله، وسيتبين لنا العدو من الجاهل

فإذا كونت قاعدة عريضة من الخلق الذين يريدون الحق سترى كيف تكون عطية الله لهؤلاء.

ابن عمر كان في زمن الحجاج يوم أن قصف الحجاج مكة من أجل أن يزيح عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، ومع ذلك لم يخرج ابن عمر على عبد الملك ولا على الحجاج، وكان يحج معه، إنه الائتمار بأمر الله وليست العواطف والمشاعر، إنه الاعتصام بحبل الله.

فالمقصود أن ما وقع وقع في العالم انتهى، لا نفكر فيما مضى، ولا نجادل الخلق فيما حصل، ما وقع قدر انتهى أمره، إننا نفكر فيما هو آت:

- **على ماذا نربي أبناءنا؟**
- **ماهي القيم التي يجب علينا أن نظهرها؟**
- **كيف يجب علينا أن نأمرهم بالمعروف وندعوهم إلى الخير؟**
- **نمسكهم بحبل الله فيجتمعون، إنهم لا يجتمعون!**

هذه الدعوة ليست مجرد الدعوة للاجتماع، لو كانت الدعوة فقط للاجتماع سيجتمع الناس على المصالح، ولكن نحن نقول: **اعتصموا بحبل الله، علموا الناس عن الله، علموهم التوحيد،** علموهم ما

معنى الطاعة لله، إن امتثال أمر الله يجعلني امتثل أمر الأمير، وإن الانتهاء عن نهي الله يجعلني لا أطيل لساني على الأمير.

يقول أبو الدرداء: "إن أول نفاق المرء طعنه على أميره"! فهذه الاستهانة وعدم الاعتناء وعدم الحرص على قيمة الاجتماع وعلى أسباب الاجتماع سبب ما نحن فيه.

إذن الاجتماع لا يكون إلا على حبل الله، الاعتصام يكون بحبل الله، نهينا أن نفترق عن حبل الله، أمرنا أن نعتصم بحبل الله، وأمرنا أن تكون هناك أمة تعتني بدعوة الناس إلى الخير لنعتصم جميعا بحبل الله.

فليس هناك حزب وليس هناك انشقاقات، إنما نحن جميعًا معتصمين بحبل الله، فلما تأتي علينا الأحوال تأتي علينا الأوضاع، تتقلب علينا الأمور، نرى الاعتصام بحبل الله يأمرنا بأي شيء؟ كلنا متمسكين بحبل الله إذن كلنا سنأتمر بأمر الله، إذن كلنا سننتهي عن ما نهى الله، إذن كلنا سنكون في حِرْزٍ من الشيطان، إن دعوة الجماعة تحيط بهم، والافتراق مَفسدة بعينه.

أعظم المفسدة وأخطرها هو ما ستسمع الآن:

يقول الله عز وجل:

- ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾
- ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

متى نرى هؤلاء ونرى هؤلاء؟ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

يقول الشيخ: **يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء.**

نحن نخاف أن نفعل شيئا على هوانا ونعتقد أنه يوجد شيء في الدنيا ليس محكومًا بأمر الله وإنما هو من منتجات أفكار الخلق .

فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ **وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله،** هؤلاء الذين ائتلفوا واعتصموا بحبل الله هم الذين ستبيض وجوههم .

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ **وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم.**

ويقصد أن ابيضاض الوجه واسوداده إنما هو آثار ما في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ **أي: كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟**

وهذا معنى خطير يعني : أن الأمر أوله أن يفترق الإنسان عن الاعتصام بكتاب الله فيقبل ما تهواه نفسه فيأتي عند أمور فلا يمتثل أمر ربه، وإنما يختار هواه ويرد أمر الله، ينتهي به الحال أن يكون كما قال الله عز وجل: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ **أي كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟** -وهذه هي طريق أهل البدعة إنهم تركوا الاعتصام بحبل الله وافترقوا فرقًا أخرجتهم عن دين الله، فنعوذ بالله من الضلال- ﴿فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ **فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار**. والعياذ بالله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ **فيهنؤون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته** ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين.**

إذن معنى هذا أن من أراد أن يبيض وجهه يوم القيامة وخاف من أن يسود وجهه فعليه بالاعتصام بحبل الله، ويتقي الله، ويبذل جهده ألا يفترق مع جماعته، وألا يكون ممن ركب رأسه في كل أمره، فيجتمع مع جماعة المسلمين، وإذا كان هناك جماعة فلابد لها من ولي، والحمد لله الذي جعل للمسلمين أولياء أمور يصلون بهم إلى المقاصد الأساسية في حياتهم، فإن اشتراط أن يكون ولي الأمر تام الصلاح أو حتى فيه الصلاح هذا شأن مرغوب محبوب، لكن إذا لم يتوفر فأنت مأمور بأمر الله أن تمتثل الأمر وتطيع ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا)) قَالُوا : فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ))[1] إنها ليست عيشة الهوان، بل عيشة الامتثال بأمر الله، وسترى بعد هذه العيشة كيف تبيض وجوه وتسود وجوه.

على كل حال الأمر شائك لا يمكن أن يكون في هذه العجالة شرحه، لكن أنا أنصحكم بقراءة رسالة للشيخ السعدي بعنوان: (الحثّ على اجتماع كلمة المسلمين وذمّ التفرق والاختلاف).

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشرح قلوبنا للحق، وأن يجعلنا ممن فهمه ودان به، وأن لا يجعل هوانا يسبق قبولنا للحق، وأن يجعل هوانا تابعًا للحق، اللهم آمين.

اجعلنا ممن تبيض وجوههم، وأبعدنا عمن اسودت وجوههم، واحفظنا يا كريم من أسباب اسوداد الوجه، وسبب لنا أسباب بياضه يوم أن نلقاك، اللهم آمين.

[1] رواه البخاري في صحيحه.